Black plate (106,1)

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ).

الشَّرْح

الأصل الثاني

الأصل الثاني هو معرفة دين الإسلام بالأدلة، وقد نبهنا على عناية الشيخ بالأدلة، وفرق بين من يعلم الحق بدليله، ومن يعلمه تقليدًا، فإن من كمال التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ أن تعرف الحق بدليله، وأن تمتثله اتباعًا.

قوله: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ): وعرفه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ)؛ يعني: الخضوع بالتوحيد، وقد بينا التوحيد بأنواعه الثلاثة، بأن يفرد الله تعالى بالربوبية، وأن يفرد الله تعالى بالعبادة والألوهية، وأن يفرد الله تعالى بما ينبغي له من صفات الكمال ونعوت الجلال.

قوله: (وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ): لا يمكن أن يقع إسلام إلا بطاعة خلافًا للمرجئة؛ فإن من ضرورة الإسلام لله رب العالمين العمل؛ ولأجل ذا نجد أن الله تعالى لا يكاد يذكر الإيمان إلا ويذكر معه العمل الصالح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (107,1)

ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٧٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، فلا بد من طاعة، فلو زعم زاعم أنه قد أفرد الله بالتوحيد لكنه لا يعمل عملًا البتة، لقلنا هذه دعوى باطلة.

قوله: (وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ): البراءة تعني: التخلي والمجانبة؛ إذ لا يجتمع توحيد وشرك، فالله تعالى يجعل الإيمان قائمًا على ساقين: توحيد الله والبراءة من الشرك كما قال الله ﷻ في آية الكرسي: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال الله تعالى في قصة الفتية من أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فقد كان قومهم يعبدون غير الله، ويعبدون الله أيضًا، لكن هؤلاء الفتية أفردوا الله بالعبادة فلم يكن قومهم قد تركوا عبادة الله، كانوا يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بالشرك. وكذا قال إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، فقد كان قومه يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بعبادة غيره معه، فتبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى ربه ﷻ. وكذا كان مشركو العرب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ**» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ[1]. فأهل النبي ﷺ بالتوحيد: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ**

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١١٨٥).

Black plate (108,1)

لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»[(١)]، فلا بد من البراءة من الشرك وأهله؛ لأن الشرك يتمثل في جماعة، فلا بد من البراءة من أهله أيضًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ؟ قَالَ: «**لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا**»[(٢)]. وقد قال الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هذه حقيقة الإسلام، ويجب أيها الإخوة أن يكون لدينا ألسنة ناطقة، وبيانًا واضحًا حينما نُعرف بديننا، فإذا قيل لنا ما دينكم الذي تدعون إليه؟ ينبغي أن ينطلق لسانك وبيانك في بيان حقيقة هذا الدين، وتميزه على سائر الأديان، وأنه لا يوجد دين توحيدي على وجه الأرض إلا دين الإسلام، هو إرث الأنبياء السابقين، وأما ما سواه من الملل والنحل فقد دخلها الشرك وفسدت بما أحدثه الأحبار والرهبان.

قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ، وَالإيمَانُ، وَالإحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ): الواقع أن هذه المراتب كما أسلفنا هي مراتب الدين؛ إذ لا يستقيم أن نقول: الإسلام ثلاثة مراتب أولها الإسلام؛ لأن هذا تعريف للشيء ببعضه؛ وإنما هي مراتب الدين، بدليل أن النبي ﷺ قد

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٢٦٤٥)، والترمذي، رقم: (١٦٠٤) عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مرفوعًا، وأخرجه النسائي، رقم: (٤٧٨٠) عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ مرفوعًا بدون ذكر جرير، قال ابن حجر كما في التلخيص الحبير: «وصحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم»، (٤/٢١٨)، وصححه الألباني مرفوعًا بشواهده في الإرواء، رقم: (١٢٠٧)، والأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٢٨١).

Black plate (109,1)

قال في حديث جبريل ـ الذي ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان ـ قال في آخره: (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ)[١].

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٩).

Black plate (110,1)

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إِلٰه إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللّٰهِ الْحَرَامِ. فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنَ الإِثْبَاتِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٧] نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ لِلّٰهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ،

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (111,1)

وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ).

الشَّرْح

أركان الإسلام الركن الأول

قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إِلٰه إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): شروع من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان أركان الإسلام؛ فالإسلام مقام على خمسة مبان، أعظمها وأشرفها وهي بوابة الإسلام وأول الأمر وأوسطه وآخره، الشهادتان؛ شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله. قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، هذه أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به.

قوله: (وَالْمَلَائِكَةُ)؛ أي: الملائكة شهدوا بذلك أيضًا؛ لأنهم عند ربهم وهم أعلم الخلق به، وقد أثنى الله عليهم ثناءً عطرًا فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]، وقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١]؛ فهؤلاء الملائكة العظام يشهدون لله عَزَّوَجَلَّ بالوحدانية.

قوله: (وَأُولُو الْعِلْمِ): لله درهم ما أعظم حظهم وشرفهم، حينما قرن الله شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وذلك أن أهل العلم قد نور الله عقولهم وبصائرهم فأبصروا الأشياء والحقائق على ما هي عليه؛ ألم تر أن الله تعالى أحال عليهم وأرى رأيهم فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦]، قوم يحيل الله عَزَّوَجَلَّ على رأيهم جديرون بالثناء،

Black plate (112,1)

ففي هذا شرف لأهل العلم. وقال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأهل العلم لديهم الملكة والقدرة على الاستنباط، ولذلك أثبت الله شهادتهم، فهذه أعظم شهادة في أعظم مشهود به من أعظم شاهد، وفي هذا شرف لأهل العلم لا يبلغه شرف؛ لأن الله تعالى قرنهم بذاته وملائكته.

(أشهد)؛ أي: أقر وأعترف، كأنك لقوة يقينك بهذا الأمر القلبي تشاهده رأي العين، ولا ريب أن المشاهدة أعظم ما يكون في التحقيق، فلهذا عبر بالشهادة مع أنه أمر علمي.

(إلٰه)؛ أي: مألوه بمعنى معبود، فهو على وزن فعال بمعنى مفعول؛ كقولنا كتاب؛ أي: مكتوب. فراش؛ أي: مفروش. بساط؛ أي: مبسوط. غراس؛ أي: مغروس، وليس إلٰه بمعنى آله أي فاعل فمعنى قولك لا إلٰه إلا الله؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، هذا تفسير كلمة التوحيد.

والإلٰه: هو من تألهه القلوب محبة وتعظيمًا؛ أي: تنجذب إليه، من الوله، وذلك أن الإلٰه المستحق للعبادة سبحانه وبحمده هو الذي يستقطب القلوب ويجذبها محبة وتعظيمًا، لا يستحق هذا أحد سواه، وهناك آلهة سوى الله بدليل أن الله سماها آلهة فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]، لكنها ليست آلهة بحق؛ ولهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠]، إذن هي مجرد أسماء وعناوين، أما الإلٰه الحق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه فهو الله سبحانه، لا إلٰه غيره، ولا رب سواه، وقد عدت شهادة واحدة مع تعدد المشهود به؛ لأنه لا يمكن أن تتحقق عبادة الله إلا بالإيمان برسوله ﷺ ولا يمكن أيضًا أن تتحقق شهادة أن محمدًا رسول الله إلا بالإيمان بالله.

Black plate (113,1)

ثم بين معناها بقوله: (وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ [الرّعد: ٣٠] نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ).

قوله كلمة: (لا)، هي النافية للجنس، فاسمها (إلٰه)، وخبرها محذوف. تقديرها: لا إلٰه حقٌّ إلا الله؛ فمعنى الكلام: لا معبود بحق إلا الله ﷻ.

أما المعبودات المزعومة فكثيرة؛ فمن الناس من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، وأصناف المعبودات التي قد لا تخطر ببال!

قوله: (إلا اللهُ): فأثبت الألوهية له وحده سبحانه، فـ(لا إلٰه)؛ أي: نافيًا جميع ما يعبد من دون الله.

قوله: (﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ): وهذا تعليل حسن، فلما كان سبحانه لا شريك له في ملكه، كان جديرًا بأن يكون لا شريك له في عبادته، وتأملوا هذا المعنى العظيم الذي ذكره الله ﷻ في سورة سبأ، لتروا عظمة القرآن، وقوة دلالته وحجته، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فالله تعالى نفى عنهم ابتداءً ملك ذرة في السماوات أو في الأرض. فربما قال قائل: لا يملكون استقلالًا لكن ربما يملكون مشاركة، فيكون في ذلك مسوغًا لدعاء من دون الله، فقال ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾. فربما قال قائل: لا يملكون استقلالًا ولا مشاركة، لكنهم بمنزلة الأعوان والخدم والحشم، الذين لا يستغني عنهم السلاطين، فيكون مسوغًا لعبادتهم ودعائهم من

Black plate (114,1)

دون الله، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ أي: معاون، فمحق الله ﷻ جميع ما قد يتسلل إلى الذهن من احتمال صحة دعاء غير الله، لكن بقي شيء واحد ربما يتذرع به المشركون؛ بل قد تذرعوا به، وهو: الشفاعة. قالوا: سلمنا أنهم لا يملكون استقلالًا، ولا مشاركة، ولا معاونة، لكن لهم جاه ومنزلة عند الله ﷻ تسوغ لنا أن نتخذهم وسائط، كما هو الحال عند ملوك الدنيا يكون لهم وزراء مقربون، فإذا توسط الإنسان بهم بلغوه مراده. وهذا الاحتمال من أعظم أسباب الشرك، فقال الله تعالى معقبًا: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] فإذا كانت الشفاعة لله جميعًا، فمعنى ذلك أنها لا تطلب إلا من عنده وبإذنه، إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه فهي ملكه، فما الفائدة أن تطلب ممن لا يملكها؟! الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، فملوك الدنيا يجيزون شفاعة فلان وعلان إما رغبة أو رهبة، لكن الله ﷻ لا يستكثر بنا من قلة ولا يستعز بنا من ذلة، فكان تمكين بعض الأنبياء والصالحين من الشفاعة لإظهار فضلهم، لا أنهم يبادرون الله تعالى بذلك دون إذنه، فلا بد من شرطين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

فيا لهما من آيتين عظيمتين يمحقان الشرك من أصوله ويثبتان التوحيد؛ ولذا أردفهما الله تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: الملائكة الذين هم أقوى من يتصور دعاؤه من دون الله فحالهم مع ربهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ**

Black plate (115,1)

قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ﴾ **لِلَّذِي قَالَ** ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾»[(١)]، إذا كان هذا حال هؤلاء الذين هم أقوى من نتصور من يمكن أن يدعى من دون الله، فما بالك بمن دونهم؟ فهذا من عظيم دلائل القرآن ونفيه للشرك وإثباته للتوحيد.

قوله: (وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا)؛ أي: كلمة التوحيد.

قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]).

هذا النبي الكريم صدع بكلمة التوحيد بين ظهراني قومه، فخص وعم، فلم يختلف الأمر عنده بين قريب وبعيد. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[(٢)].

وكذلك كان جده إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وكلمة (براء) يسميها أهل اللغة صفة مشبهة، وهي أبلغ من أن يقول إنني بريء مما تعبدون، كأنما صار هو ظرفًا للبراءة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٧]، هذا يدل على أن قومه كانوا يعبدون الله

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٧٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٢٧٥٣)، ومسلم، رقم: (٢٠٦).

Black plate (116,1)

ويعبدون معه غيره؛ ولهذا تبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى خالقه وإلٰهه الذي فطره، وهذا إذا اعتبرنا الاستثناء متصلًا.

أما إن قلنا الاستثناء منقطع فذلك يدل على أنهم لم يكونوا يعبدون الله فتبرأ من جميع معبوداتهم، ثم قال: إلا الذي فطرني؛ يعني: بل أعبد الذي فطرني، فعلامة الاستثناء المنقطع أن ترفع (إلا) وتضع مكانها (بل).

والتوجيه الأول أولى وأرجح؛ فإن الأمم السابقة كانت تعبد الله لكنها تشرك معه غيره.

معنى **فطرني**؛ أي: ابتدأ خلقي، فمعنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: مبتدئ خلقهن. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا؛ أي: ابْتَدَأْتُهَا»[(١)].

فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ من أقوى دلائل التوحيد؛ لأنه يدل على أن الذي ابتدأ الخلق وأوجد مادته من العدم هو الحقيق بالعبادة، وبمثل ذا قال مؤمن القرية حينما جاء إلى قومه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٢]، تجد أن كلام أهل الإيمان متشابه، وإلا فلا علاقة زمنية ولا جغرافية بين إبراهيم عليه السلام ومؤمن القرية رحمه الله، لكن الإيمان واحد فيثمر ثمرات واحدة فقال ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾، وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ**

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢١٢). وينظر: تفسير ابن أبي حاتم، ط. مكتبة نزار الباز (١٠/ ٣١٧٠)، تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٦/ ٥٣٢).

Black plate (117,1)

فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»[1]، فيجب أن نشعر بهذا الافتقار لله ﷻ في مأكلنا ومشربنا، وفوق ذلك كله في هداية قلوبنا، فلهذا قال إبراهيم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، **(وجعلها)** مرجع الضمير إلى تلك الكلمة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وهي كلمة التوحيد بمعنى لا إله إلا الله، ﴿عَقِبِهِۦ﴾؛ يعني: في ذريته، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: يأوون إليها ويرجعون إليها عند الاختلاف، لكن منهم من هدى الله، ومنهم من ضل؛ لأن إبراهيم سأل ربه ذلك لكن الله ﷻ بين أن منهم من يؤمن ومنهم يشرك. وقال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال: (وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]).

توجيه رباني للنبي ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب، وأهل الكتاب في الكتاب والسُّنَّة المراد بهم اليهود والنصارى، والمراد بالكتاب هو ما أنزل إليهم من ربهم، فقد أنزل على موسى التوراة، وأنزل على عيسى الإنجيل، فهم يفترقون عن بقية الأمم بأنهم أهل كتاب، وإن كانوا قد حرفوه، وأما من ليسوا أهل كتاب فقد سماهم الله تعالى باسمين؛ سماهم تارة: المشركين، وتارة: الذين لا يعلمون، فقال تعالى: ﴿لِمَ

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٥٧٧)، من حديث أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

Black plate (118,1)

﴿يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، وفي موضع آخر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، يريد بهم سبحانه من ليسوا يهودًا ولا نصارى. وفي مواضع فصل طوائفهم فسمى سبحانه الصابئة والمجوس.

ونستنبط من هذا النداء أننا نحن أصحاب المبادرة إلى الحوار، وكلمة الحوار كلمة شاعت في العقود الأخيرة، والحوار هو المراجعة بين الطرفين، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]؛ فالتحاور هو المراجعة في الكلام، فنستنبط من قول الله تعالى: (تَعَالَوْا)، أننا أصحاب المبادرة؛ لا ننتظر منهم أن يدعوننا، بل نحن أصحاب المشروع الدعوي الإيماني التوحيدي، فحري بنا أن نبادئهم بالدعوة.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]: **(كلمة)** نتفق نحن وإياكم عليها، هذه الكلمة لم يدعها الله تعالى لتفسير مفسر، ولا لقول فقيه، فتولى سبحانه تفسيرها وبيانها.

قوله: (﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ٦٤]): فإذا خاطبنا اليهود والنصارى فخطابنا يجب أن ينطلق من هذا المضمون، كما أمر الله نبيه، وكما امتثل نبيه لأمر ربه، فحينما كتب إلى هرقل قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**، و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا

Black plate (119,1)

نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤][1]. فكتب النبي ﷺ له هذه الآية بنصها؛ امتثالًا لأمر ربه، وهكذا صنع مع نصارى نجران وهكذا صنع مع اليهود في المدينة. كانت دعوة النبي ﷺ وحواره لأهل الكتاب تنطلق من هذه الآية ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأن من لازم التوحيد نفي الشرك، وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله؛ إذ أن القوم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، هذا هو مشروعنا وهذه هي دعوتنا التي نبادئ بها البشرية جميعًا، من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا، ليس لنا مشروع سواه، فإن أبوا قال الله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، فليس صوابًا أن نبحث عن حل مشترك ولا أن نلتقي في منتصف الطريق، وأن نتنازل عن بعض عقائدنا وهم كذلك، ثم نصنع توليفة من دين مهجن! حاشا وكلا. الدين دين الله لسنا أوصياء عليه حتى نفصله على مقاس معين، يجب علينا أن نمتثل أمر ربنا وأن ندعو الناس جميعًا إلى دين الله الذي فيه سعادتهم ونجاتهم، فإن هم استجابوا لذلك فحيهلا ومرحى، وإن أبوا فإنا نقول كما أمرنا ربنا ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وعلى هذا سار أهل الإسلام من لدن النبي ﷺ عبر القرون يدعون إلى دين الإسلام واتباع محمد ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧)، ومسلم، رقم: (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب رضي الله عنهم مرفوعًا.